العقاد وموقفه من التراث العربي

الأستاذ محمد عبد الغني حسن

أذكر منذ قرابة أربعين عاماً ، أو بالتحديد في أوائل سنة ١٩٣٩، أن المرحوم عباس محمود العقاد كتب مقالاً في عدد خاص أصدرته دار الهلال عنوانه : (التراث العربي ، ووسائل إحيائه في هذا العصر) .

ولعل هذا المقال هو البحث المستقل الوحيد الذي كتبه العقاد خاصاً بالتراث العربي ووقفاً عليه . ولعله يوضح لنا فكرة العقاد عن التراث ومدى اهتمامه به ، والطرق التي يراها كفيلة بإحيائه بعد أن ظل منزوياً ، أو مهيلاً عليه التراب في خزائن لم تنطال إليها العيون ، ولم تمتد إليها الأيدي .

وعلى مدار ما كتبه العقاد من فصول ، وما دبجه من مقالات ، وما ألفه من مصنفات لم نقع له على مبحث مستقل قائم بذاته خاص بالتراث العربي إلا هذا المقال الذي يشتمل عليه كتاب (العرب والإسلام في العصر الحديث) الذي صدر على هيئة جزء خاص من أجزاء مجلة الهلال ، اشترك فيه جماعة من قادة الرأي ، وأعلام الفكر في العالم العربي الإسلامي من أمثال المرحومين الشيخ محمد مصطفى المراغي ، والدكتور محمد حسين هيكل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والأمير مصطفى الشهابي، وطلعت حرب، ومحمد فريد وجدي، وعبد العزيز الثعالبي، ومحمد كرد علي، وأنيس المقدسي، ومحمد فخري البارودي، وعبد العزيز البشري، والدكتور زكي مبارك، وعبد الحميد العبادي، وعبد الرحمن شكري وغيرهم.

وأذكر أن العقاد في ذلك المبحث الفريد الخاص بالتراث العربي أشار إلى غناه — أعني ذلك التراث — بسير العظماء وتراجم الرجال، والحركات الاجتماعية، والشعر الغنائي، والشواهد السيارة، والفكاهات والنوادر والأحاديث التي لا زمان لها لأنها صالحة لكل زمان ومكان ... فهي صالحة لوقتنا هذا كما كانت صالحة لأوقاتها التي جرت فيها .. ورأى العقاد أن إحياء هذا التراث الزاخر يقتضي نقله إلى عالم حياتنا المعاصرة، وتحويله إلى مجرى زماننا الحاضر وتمثيله للقراء (كي يشارفوه كما يشارفون الدنيا الحية، لا كما يشارفون المتاحف المزوية، فهو يحيا بنا، ونحن نحيا به في آن ...).

وأدرك عباس محمود العقاد بفطنته أن إحياء التراث العربي القديم بطبعه ونشره لا يكفي. فمن الكتب ما يطبع كما كتبه مؤلفوه، فهو ينشر برمته دون التجاء إلى حذف أو تعديل، ومنها ما يختار منه الأصلح والأقرب إلى تشويق قارىء اليوم وشد انتباهه .. ومنها ما يشفع بالتعليق أو التفسير؛ ومنها — وهذا أصعب الأقسام — ما هو بأشد الحاجة إلى عقد المقارنات، ونصب الموازنات بينه وبين نظائره في الأمم الأخرى، وإلى الملاحظات عن البواعث والأسرار التي لا يقتصر العلم بها على العلم بالشؤون العربية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وألقى العقاد عبء القيام بواجب إحياء التراث العربي على الجماعات أكثر من الأفراد ، لأن أدبنا العربي أحوج الآداب إلى جهود الجماعات التي لا تجزىء فيها ولا تغني أعمال الأفراد المتفرقين وحين فطن العقاد إلى واجب الحكومة في سبيل إحياء التراث ، فإنه حذر واعياً — أن تلقي به الحكومة إلى موظفين مطمئنين إلى الرزق المكفول ، والمرتب المضمون ، فإن ذلك يسوق إلى إخفاق المشروع جملة ، بل جعله أمانة في عنق عاملين يعنيهم رواجه وكساده ، ويهتمون به اهتمام الزارع بمحصوله ، والتاجو بكسبه ..

وإذا كان العقاد لم يستقل في موضوع التراث العربي إلا بمقال واحد نشر في حيز صغير جداً من كتاب أصدرته دار الهلال سنة ١٩٣٩ ، فإنه — رحمه الله — كان معنياً بقضية التراث يبثها في مقالات وفي خلال كتب أو فصول ، مما يؤكد ولوعه بالتراث العربي وشدة تشبثه به ، وكثرة حفاظه عليه وتعلقه به .

ولقد أتيح لي — بقدر سعيد — أن أشترك في العدد الذي أصدرته مجلة الهلال في أول أبريل سنة ١٩٦٧ بدراسة عن (العقاد مؤرخ الإسلام) . وأذكر أنني قلت في تلك الدراسة يومئذ : (ولعل إيمان العقاد بخصوبة التراث الإسلامي في سير عظمائه وأبطاله هو الذي حدا ، إلى كتابة العبقريات الإسلامية على نسق غير مسبوق ، وطريق غير مطروق .. فقد كتب عن عبقريات محمد ، والصديق ، وعمر ، والإمام علي ، وخالد ، وعمرو ابن العاص ، وبلال بن رباح داعي السماء ، وأبي الشهداء الحسين ابن علي ، والصديقة بنت الصديق ، وفاطمة الزهراء ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وذي النورين عثمان بن عفان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكتب في مجال فلاسفة الإسلام ومفكريه عن الشيخ الرئيس ابن سينا ، وابن رشد ، والإمام الغزالي ، والشيخ محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، والشاعر محمد إقبال .. وهكذا سار العقاد في موكب التاريخ الإسلامي - من القديم إلى الحديث - ومن صاحب الدعوة المحمدية إلى أنصار الدعوة ، ومن السابقين في الإسلام إلى الذين أخرهم الزمان ، فاستخرج من رجال هذه المواكب الحاشدة حفنة كريمة من هؤلاء الأبطال والأعلام ، وعرضهم عرض الدارس للشخصية ، الراسم للصورة ، لا المستعرض للسيرة .. وشتان بين المذهبين ، وإن كان كل منهما لا يغني عن صاحبه).

وقد تكون تراجم العقاد لأعلام العقيدة الإسلامية ، وأساطين الجبهة الإسلامية ، ورجال الفكر العربي نوعاً من الميل الفطري إلى كتابة السير والتراجم ، أو قد تكون إثباتاً للقدرة على كتابة السيرة ، وتحرير الترجمة على نحو جديد لم يسلكه المؤلفون من كتاب الطبقات والسير من قبله .. أو قد تكون تحدياً خفياً لكتاب التراجم .. والسير من الغربيين الذين أولع العقاد بمنهجهم ، وآمن بصلاحيته في ميدان التراجم .

أو قد تكون نوعاً من « التعاطف » نحو هؤلاء الذين يترجم لهم ، ويؤرخ سير حياتهم ولكنه - هو نفسه - قد أوضح لنا أسباب اختياره لترجمة ما . ولنسمعه يقول في فصل له من كتاب (أنا) بعنوان : (منهجي في كتابة المقالات) : (فالقاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لإبراز حق ضائع ، أو حقيقة مجهولة . وتستوي في ذلك سير العظماء والنوابغ من كل طراز ، وفي كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ . فالحافز الأكبر على تأليف كتابي عن ابن الرومي أنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مجهول القدر ، مبخوس الحق ، يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهلُ النقـاد ، وظلم الأغراض والأهواء . ورأيي فيه أنه أعظم شعراء العالم — بلا استثناء - في ملكة الوصف التصويري والعاطفة الممثلة في قالب الحس والخيال . ولكن نقادنا يذكرونه ويحسبون أنهم يتعطفون عليه إذا ألحقوه بشاعر كالبحتري أو ابن المعتز على غير مساواة . وهما بالقياس اليه كمن ينطق بحروف الهجاء في مجالس البلغاء . ولقد كان إنصافه — مما أصابته به خرافـة الجهل وخرافة الشؤم — حافزاً يوشك أن يكون من حوافز الغيرة الدينية ، إلى جانب لذته الأدبية ، وفضلت البدء به على البدء بتأليف غيره في موضوع النقد وتواريخ الآداب) .

وقد فطن العقاد إلى أن الترجمة وكتابة السيرة للإنصاف وإبراز الحق الضائع قد توحي بأن كتابه عن (عبقرية محمد) كان نوعاً من الإنصاف لرسول لا يحتاج إلى إنصاف أحد . وأن كلامه هذا قد يثير عليه اعتراضاً من قارىء ما كان أغناه عنه ، فقال في معرض التزكية لوجهة نظره : (ولا يقال عن عظمة النبي عليه السلام إنه بحاجة إلى إنصاف أحد ، أو دفاع في وجه ناقد ناقم يفترى عليه ، لأنها عظمة القداسة التي تعلو على إنصاف المنصفين ، وافتراء المفترين . ولكنني كتبت « عبقرية محمد » للقارىء الإنسان الذي تضطره مقاييس الإنسانية العليا إلى تعظيم بني الإسلام ولو لم يكن على دين المسلمين) .

فالعقاد لا يتشبّث بقضية التراث — شخصاً أو فكرة أو أدبا - إلا إذا كان هناك ما يدعو إلى هذا التشبث ويقتضيه ، وإلا فإنه كتب عن شخصيات غير تراثية وغير إسلامية وغير عربية ، لأنه — بحكم منهجه في كتابة التراجم - رأى أنهم يستحقون الكتابة عنهم والوقوف أمامهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يختر العقاد لكتابة السيرة والترجمة شخصيات من لون معين أو من مجال أدبي محدد ، فقد كتب عن ابن سينا كما كتب عن ابن رشد وهما من رجال الفلسفة الإسلامية ، وكان في نيته أن يكتب عن الغزالي الفيلسوف الذي يصارع الفلاسفة ، والفقيه الذي يؤدب الفقهاء ، والمتصوف الذي يكشف عن عالم الخفاء ، كما يكشف عن عالم الشهادة - كما يقول - وكتب عن شعراء كثيرين من رجال التراث الأقدمين كما كتب عن شعراء من المحدثين والمعاصرين .. فكتب كتباً قائمة بذاتها من ابن الرومي وعمر ابن أبي ربيعة ، وأبي نواس ، وجميل بثينة ، كما كتب فصولاً متفرقة وبحوثاً متنوعة عن المتنبي وأبي العلاء المعري ، ودعبل ، وبشار بن برد ، وابن زيدون ، وابن حمديس من القدماء ، وعن محمود سامي البارودي ، وعبد الله فكري ، واسماعيل صبري ، ومحمود صفوت الساعاتي ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، ومحمد عبد المطلب ، وحنفي ناصف ، والسيد توفيق البكري ، ومحمد عثمان جلال ، والشيخ علي الليثي ، وعبد الله النديم من المحدثين والمعاصرين .

ومن هنا نرى أن عباس محمود العقاد « تراثي » حين يقتضي الإنصاف وإبراز الحق الضائع الكتابة عن رجال التراث من الشعراء والأدباء والمفكرين والمصلحين ، وأنه غير تراثي حين تدعو الحقيقة نفسها إلى إبراز حق ، أو إنصاف مهضوم ، أو الإغداق على محروم .

وقد يكون اهتمام عباس محمود العقاد بالتراث الشعري ورجاله السابقين نوعاً من النهم إلى المعرفة ، لا ضرباً من الولاء والوفاء لهذا التراث ، ومن هنا لا يجوز لنا أن ندق الطبول حين نرى العقاد عاكفاً على شخصية من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شخصيات التراث ، فنقول إنه رجل عاشق للتراث العربي الإسلامي ، عابد له ، عاكف عليه . فقد رأينا أنه استوى عنده القديم والجديد ، واستوى عنده الماضي والحاضر ، واستوى عنده التراث والعتيد حين اقتضاه الانصاف أن يترجم لذاهب أو معاصر .. فهنا لا يدعوه تراث ولا قدم ولا سبق عصر ، ولا روعة ماض ، ولكن تدعوه النصفة وتحفزه المدافعة عن الحق بغضّ النظر عن « الزمان » ماضياً كان أم حاضراً ، ودابراً كان أم معاصراً .

ومما يؤكد لنا اهتمام العقاد بالمعرفة ونهمه إليها من جميع أبوابها ،وعلى جميع حالاتها وعلاتها ما ذكره هو في فصل كتبه بعنوان : (كنت شيخاً في شبابي) حيث يقول : (والمقياس الوحيد الذي أقيس به جهدي في جميع أدوار حياتي هو النهم إلى المعرفة . فإنني لا أذكر سناً لم أكن فيها أحب أن أعرف ، وأن أقرأ ، وأن أختبر ، وأن أفيد من كل ذلك توسعة في آفاق الشعور .. صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم تخيلني في بعض كتبه قد دخلت الجنة ، وذهبت أطوف بين أرجائها عسى أن أرى واجهة مكتبة أقف أمامها ، وأتأمل عناوين الكتب فيها . فلما طال بي المطاف ولم أجد مكتبة ولا كتباً ضجرت منها ، وطفقت أقول : ما هذا ؟ جنة بغير كتب ؟!)[1] .

إلى هنا نستطيع أن نرد اهتمام العقاد بالتراث إلى نوع من الإنصاف والكشف عن الحقيقة يستوي فيه التراث وغير التراث .. وأن نرده إلى نوع من النهم إلى المعرفة والتعطش لها سواء أكانت في آثار الماضين أم المعاصرين .

(١) أنا . بقلم عباس محمود العقاد . ص ١٥٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد نستطيع أن نرد اهتمام العقاد بالتراث العربي الاسلامي إلى ضرب من الإيمان استقر في يقينه ، ودفعه إلى تقديس الماضي . ولما كان التراث العربي مرتبطاً بالعقيدة الاسلامية ارتباط نشأة وفكرة وأصالة وملازمة ، فقد كان طبيعياً أن يحرص العقاد على التراث العربي ويعزه حرصه على العقيدة الراسخة ، واليقين القائم . وعلى الرغم مما كان عند العقاد من بدوات فكرية لا تمس جوهر الدين فإنه كان مؤمناً شديد الإيمان بالله ، وقد أعانته البيئة التي نشأ فيها ، والجو الذي درج فيه على أن تستقر في أعماقه أصول وعي ديني عميق . وندعه هنا يحدثنا عن هذا الشعور بقوله من فصل عنوانه : (إيماني) : (أومن بالله .. أومن بالله وراثة وشعوراً وبعد تفكير طويل . فأما الوراثة فأني قد نشأت بين أبوين شديدين في الدين ، لا يتركان فريضة من الفرائض اليومية . وفتحت عيني على الدنيا وأنا أرى أبي يستيقظ قبل الفجر ليؤدي الصلاة ، ويبتهل إلى الله بالدعاء . ولا يزال على مصلاه إلى ما بعد طلوع الشمس ، فلا يتناول طعام الإفطار حتى يفرغ من أداء الفرض والنافلة وتلاوة الأوراد . ورأيت والدتي ـ في عنفوان شبابها ـ تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم وتطعم المساكين ، وقلما ترى النساء مصليات أو صائمات قبل الأربعين . وندر بين أقاربي من لا يسمى باسم من أسماء النبي وآله ، سواء منهم الرجال والنساء ، أو من أسماء الأنبياء على العموم . وكان في بيت أخوالي درس لقراءة الكتب الدينية ، وأذكر منها مختارات الأحاديث النبوية ، وإحياء علوم الدين ، فللوراثة شأن فيما عندي من سليقة الاعتقاد .

أما الايمان بالشعور فذاك أن مزاج التدين ومزاج الأدب والفن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يلتقيان في الحس والتصور والشعور بالغيب . وربما كان « وعي الحياة » شعبة من « وعي الكون » أو من « الوعي الكوني » الذي يتعلق به كل شعور بعظمة العالم ، وعظمة خالق العالم .. والوعي الحيوي مصدر النفس ، والوعي الكوني مصدر الدين .

أما الايمان بالله بعد تفكير طويل ، فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المريد أوضح من كل تفسير يقول به الماديون . وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي إلى توفيق ، أو يلجئه إلى زعم لا يقوم عليه دليل . وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والأساطير ، فضلاً عن تصديق العقائد الدينية ، وتصديق الرسل والدعاة ..)[1] .

وإذا كان عشق المرء للتراث لا يعدو أن يكون حنيناً إلى الماضي وإلفاً له فإن العقاد بهذا المفهوم دائم الحنين إلى الماضي والألفة له . ولا يعني هذا أنه جامد لايحب أن يتطور . فما رأينا أديباً شاعراً معاصراً يملؤه التجديد العاقل الرزين كالعقاد . فهو مجدد ، طلعة طموح ، ولكنه مع ذلك ألوف لما لابسه أو اتصل به من ذكريات وأشخاص . وقد كان في استطاعة العقاد — بعد أن تحسنت ظروفه المعاشية ، وكثر دخله من كتبه ومقالاته وأعماله في الصحافة وعضويته في مجلس الشيوخ أن يغير نمط معيشته القديم ، وأن يحيا حياة مترفة تتفق مع دخله الجديد الغزير ولاتضيق عليه ، وقد كان له من ظروفه الجديدة مايعينه على أن يحيا حياة فيها كثير من الترف والمتاع المادي والاقتناء .. ولكنه آثر أن يعيش كما كان في عهوده الأولى ، في غير ضيق — وفي

(١) المصدر السابق ص ١٩٤ ، ١٩٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوقت نفسه في غير ترف – وفضّل على جميع المقتنيات المادية من الأثاث والمتاع والرياش والألطاف اقتناء الكتب العربية والأجنبية والموسوعات والمجلات يدفع فيها أغلى الأثمان ، ولا يضن عليها بمال مهما كثر .

وقد تفسر لنا هذه الألفة والالتصاق بالماضي عند العقاد ألفته للقديم، والتصاقه بالتراث . فكل تراث في ذاته له عند العقاد قيمة ، ولكن إذا كان ذلك التراث يستحق الوقوف عنده ، والايمان به والمدافعة عنه ، فإن العقاد لا يتنحى عن ذلك الواجب . وقد ظهر لنا ذلك جلياً من اهتمامه بشعراء من شعراء التراث لم تأت قيمتهم من ناحية قدمهم التي أضفاها عليهم الزمان وحسب ، ولكنها أتت من حيث أصالتهم وواجب الانصاف لهم والدفاع عنهم كابن الرومي وعمر بن أبي ربيعة وجميل وغيرهم .

فتقدير العقاد لامرىء القيس وشعره لم يأت من حيث كونه قديماً أو من أصحاب التراث الشعري القديم ، ولكنه أتى من قيمة امرىء القيس نفسه في شعره وفي مزاياه التي أهلته لأن يكون أمير الشعر في العصر القديم . وليست تشبيهات امرىء القيس الرائعة الصادقة مجرد عملية تشبيه آلي يبدع الواصف فيها تشبيه شيء بشيء لمجرد الشكل الصوري الحسي ، ولكن روعة التشبيه في أننا نخلص منه إلى وقع الأشياء في نفوسنا، ومدى إحساسنا بها على ضوء التشبيه . وما أصدق العقاد وهو يقول في معرض الحديث عن تشبيهات السيد توفيق البكري : (... ونرجع إلى التشبيهات التي يخيل إلى بعض القراء أنها هي قوام الشعر ودليل الشاعرية . وهي عندنا لا تكون كذلك إلا إذا جاءت وسيلة لحسن التعبير ، ولم تجىء غاية مقصودة يتعمدها الشاعر ويتكلف لها ، ولو لم يكن لها دلالة ولا زيادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في إحساسنا بالشيء المشبه أو المعنى المقصود . وقد كان « البكري » يظن أن التشبيهات مفروضة عليه فرضاً ، فلا يجوز له أن يدع شيئاً يذكره دون أن يشفعه بشبيه من لونه وشكله .. ومن هنا أصبحت « أداة التشبيه » أظهر حرف في أوائل جمله وعباراته ، فإن لم ترد ظاهرةً وردت بمعناها في كل فقرة وكل صفة محسوسة أو مدركة بالوهم والخيال .

وليس هذا هو القصد من التشبيه ، ولا لهذا حَسُن في الذوق ، ووجب في الشعر والبيان . وإنما القصد منه أن نعرف وقع الشيء كيف يكون ، والإحساس به كيف يجيك في النفوس . فالمتنبي حين قال في وصف البحيرة :

والموج مثل الفحول مزبدة ... تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها — والرياح تضربها — ... جيشا وغىً : هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قمر ... حف به من جنانها ظلم

قد شبه الموج والطير وصفحة البحيرة والجنات من حولها ، ولكنه إنما وصف لنا وَقْع هذه الأشياء في روعنا ، ولم يعن كثيراً بظاهر أوصافها . فهدير الموج كهدير الفحول ولكن الموجة والفحل لا يتشابهان ؛ والطير في تحوامها على الماء تمثل لخيالنا صورة الأفراس التي خرجت من عنان فرسانها ، ولكن الطير لا تشبه الفارس ولا الفرس فيما عدا ذلك . وصفحة الماء وهي تضيء في النهار ومن حولها الزرع الضارب إلى السواد هي القمر في وسط الظلام ، ولكن فضل التشبيه هنا أنه يزيدنا إحساساً بصورتها ، لا أنه يرسمها لنا كما ترسمها الصورة الشمسية . وفي كل أولئك نفهم معنى التشبيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وغرضه وموضع حسنه ، لأنه وسيلة إلى تمام التعبير عن الوعي والشعور ، قد جاءت في الطريق ولم تكن غاية محتومة لا فائدة لها إلا أن تقرن شيئاً بشيء مثله في اللون أو في الشكل أو في الصوت . أما التشبيه الذي لا يزيدنا حساً ولا تخيلاً ، فهو فضول وتعثر يعوق عن الغاية ولا يؤدي إليها) (١) .

فتقدير العقاد هنا للمتنبي – وهو من شعراء التراث العربي – ليس لأنه قديم أو تراثي يستحق الاهتمام به ، ولكن تقديره لما فيه من تشبيه يكشف لنا عن الاحساس بالشيء الذي يريد الشاعر أن يصوره . ومما يدل على تقدير العقاد للشعر الجيد والشاعر المجيد في ذاته بصرف النظر عن تراثيته أنه أنكر على الشاعر ابن المعتز – وهو شاعر تراثي أيضاً – تشبيهه للهلال بزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر . فليس هذا التشبيه في نظر العقاد – وهو على حق – إلا ضرباً آلياً من التشبيه . وقد فضل عليه تشبيه امرىء القيس للشحم بهداب الدمقس المفتل . ولنستمع إليه يقول في هذا : (... ولذلك ننكر قول ابن المعتز في وصف الهلال ، وهو المثل الأعلى عند طلاب التشبيه لمحض التشبيه :

أنظر إليه كزورق من فضه قد أثقلته حمولة من عنبر

فلو أننا تمثلنا زورقاً من فضة ، وتمثلنا حمولة من عنبر تثقله ، لما زادنا ذلك إحساساً بالهلال ، ولا إعجاباً بحسنه وشكله . وإنما هو التشبيه « الآلي » الذي هو بالمصورة الشمسية أولى منه بخيال الشاعر ووعيه .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي لعباس محمود العقاد ص ١٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقابل الآن بين تشبيه ابن المعتز وتشبيه امرىء القيس مثلاً حين يقول في وصف الشحم :

وظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل

فأنت حين تقرأ هذا البيت تحس نهم الآكل ، ونظرته إلى الشحم الذي يأكله ، والتذاذه بأكله . وذلك هو المقصود بالشعر والمقصود من أجل ذلك بالأوصاف . ولكن المولعين بالتشبيه لمحض التشبيه ربما حسبوا أن نفاسة الدمقس هي التي عنت امرأ القيس كما كانت نفاسة العنبر هي التي تعني ابن المعتز . وربما ظنوا لذلك أن « قيمة » التشبيهين سواء ، وهما جد متفاوتين ؛ لأننا حين نتخيل ابن المعتز ينظر إلى الهلال ويشبهه بالزورق والحولة إنما نتخيل رجلاً يعمل الفكرة في التوفيق بين الأشكال والألوان ؛ أما امرؤ القيس فنحن نتخيله مع العذارى حين نقرأ ذلك البيت كما أراد أن نتخيله وأن نتخيلهن ؛ وتنصرف أذهاننا تواً إلى « حالة الأكل » المقصودة ، لا إلى تسويم قيمة الشحم والحرير الأبيض في السوق .. وهذا مع أن الشبه المحسوس بين الشحم والحرير الأبيض أقرب وأحكم من الشبه المحسوس بين الهلال وزورق الفضة على فرض وجوده . وإنما هي قدرة الشاعر التي تصرفنا عن ظواهر الموصوفات إلى وقع الموصوفات في النفس والخاطر ؛ لأن شعوره يصدر من داخل نفسه وخاطره ، ويمتلىء به وعيه ، ولا يصدر من تلفيقات الظواهر والأشكال ..) [1] .

وواضح أن تقدير العقاد لشعر امرىء القيس في هذا المثل ، أو لشعر المتنبي في المثل الذي قبله هو تقدير لقيمة الشعر وقيمة التشبيه فيه

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣ – ٧٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من حيث كونه شعراً جميلاً أصيلاً صادقاً لا من حيث كونه « تراثاً » يجب الاعتزاز به . « فالتراثية » لاتهم ولا تغني بقدر ما تهم الأصالة والصدق والجمال فيها .

ولم يكن تقدير العقاد لابن الرومي وفنه الشعري من حيث أنه قديم ومن شعر التراث ، ولكن تقديره له جاء من ناحية أن ابن الرومي التفت في شعر الطبيعة والربيع إلى ما لم يلتفت إليه شاعر مثل أحمد شوقي في العصر الحديث . والعصور هنا لا قيمة لها بقدر ما في الشعر ذاته من جمال .

وقد وقف العقاد أمام قصيدة شوقي المشهورة في الربيع والتي يقول في مطلعها :

آذار أقبل قم بنا يا صاح ... حيِّ الربيع حديقة الأرواح

ووقف عند أبياتها الربيعية التي يقول فيها :

يخطرن بين أرائك ومنابر ... في هيكل من سندس فيـاح
ملك النبات فكل أرض داره ... تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورة أعلامه من أحمر ... قان ، وأبيض في الربى لماح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها ... ومرحن في كنف له وجناح
يغشى المنازل من لواحظ نرجس ... آناً وآناً من ثغور أقاح
ورؤوس منثور خفضن لعزة ... تيجانهن عواطر الأرواح
الورد في سرر الغصون مفتح ... متقابل يثني على الفتـاح
ضاحي المواكب في الرياض مميز ... دون الزهور بشوكة وسلاح
مر النسيم بصفحتيه مقبلاً ... مر الشفاه على خدود ملاح
هتك الردى من حسنه وبهائه ... بالليل ما نسجت يد الإصباح
ينبيك مصرعه — وكلٌّ زائل — ... أن الحياة كغدوة ورواح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأخذ العقاد ينتقد ربيعية شوقي ، حتى يخلص إلى موازنة بين ربيعيات ابن الرومي وربيعيات شوقي فيقول : (... وفي اللفظ عذوبة ، وفي السرد نغمة محبوبة ، والمناظر الموصوفة هي مناظر الربيع لامراء ، فلا التباس بينها وبين مناظر الصيف والشتاء . ولكن هل يزيد هذا الربيع شيئاً على ربيع طلاب المنازه في يوم شم النسيم ؟ أو طلاب الربيع كأنه متعة حسية يستريح إليها الانسان كما يستريح بعض الحيوان إلى برد الظلال ، ومراتع النبات وريّ الماء ونفحة الهواء ؟ وهل في هذا الربيع سر يلجئنا – إذا اعتمدنا تسجيله – إلى أكثر من المصورة الشمسية أو الصور الناطقة على أبعد الفروض ؟ هل فيه سر من أسرار ذلك الربيع الذي هو ثورة في الحياة الخفية ، وبعثة في سرائر الخلق ، وقبس ينير من الباطن ، وسحر يفيض من النفس وراء هذه الأصباغ والأصداء ؟ هل فيه ربيع « الوجدان » إلى جانب ربيع النبات وربيع الأجواء ؟

كلا ! ليس فيه من ذلك الربيع أثر . وليس في ربيعيات شوقي كلها ما يعدو هذه الأوصاف التي تقف عند هوامش الحياة ، ولا تبلغ منها إلى غاية أقصى من المتعة الحسية ، وشعور الراحة الجسدية . أما ذلك الأثر فخذه من قول ابن الرومي يصف الرياض :

تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت ... فتسمو ، وتحنو تارة فتنكس
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها ... أفادت بها أنس الحياة فتؤنس

أو خذه من قوله وهو يحس تارة حنين الأبوة للرياض المشمومة :

برياض تخايل الأرض فيها ... خيلاء الفتاة في الأبراد
منظر معجب ، تحية أنف ... ريحها ريح طيب الأولاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو خذه من قوله وهو يعير الدنيا تارة أخرى شهوة كشهوة الأنثى تتبرج للغرام :

تبرجت بعد حياء وخفرْ تبرج الأنثى تصدت للذكرْ

ولا ينسى أن يقرن هذه الصورة في بيتين آخرين بصورة الفتنة الطاهرة إذ يقول :

لبست فيه حفل زينتها الدنـ ـيا وراقت في منظر فتان
فهي في زينة البغيّ ، ولكن هي في عفة الحصان الرزان

أو خذ ذلك الربيع الحي من بيتين اثنين ليس فيهما رنين ولا عذوبة مصطنعة ، ولكنك حين تقرؤهما تحسّ أن قائلها قد شعر بالربيع «الحيوي» في أعماقه ، ولم يفته شيء مما يبثه في عالم الحياة كله ، ولم يكن الربيع عنده ولا عند من يلاحظون هذه الملاحظة مروحة ولا سجادة ولا قيلولة ولا مجلس شراب ، ولكنه كان ثورة نامية في الشعور ، وثروة زاخرة في عالم النبات والأحياء بأوسع معاني الحياة . وهذان البيتان هما قوله في إحدى ربيعياته :

تجد الوحوش به كفايتهـــا والطير فيه عتيـــدة الطعم
فظبـــاؤه تضحي بمنتطـح وحمـامه يضحي بمختصـــم

فلم تبق في الدنيا حياة لم يشاركها ربيعهـــا قائل هذين البيتين ، بلا حاجة إلى الزخرف ولا إلى التكلف . ولم يتصور قائل هـذين البيتين ربيعه الجميل راحة جسدية ، ولا متعة حسية ، ولا وشيا ولا زينة ، ولكنه تصوره ذخيرة « حيوية » نامية ، ومرحاً متفجراً من الأعمـاق يضيق به نطاق كل حياة ، فإذا هي تختصم في لعب وفي قوة ، وإذا هي تعـاف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الراحة ، فتبذل بعض ما عندها من النشاط الغالب في النطاح والخصام . ولو رأى « الشرقيون » ألف ربيع فوق هذه الأرض ، وتحت هذه السماء، لما خطر لهم قط أن النطاح أو الخصام معنى من المعاني الربيعية التي يستوحيها الشعراء من موسم الحياة . لأن الشرقيين يحسبون أن الربيع إن هو إلا نعومة في إهاب الطبيعة يلمسها الشاعر بإهاب ناعم .. فلا يليق به أن يرى من « آذار » إلا الجداول والرياحين وما سهل من الحس فيما سهل من العبارات .. وماذا بعد ذلك من « لطافة الشاعرية » و « رقة » الشعور .

ولنذكر بعد أن ابن الرومي ومن على شاكلته لم يلتفتوا إلى نطاح الظباء وخصام الحمائم إلا لأنهم أحسوا مرح الحياة النامية في أنفسهم وفيما حولهم من الطير والحيوان . وأحسوا أن الظباء لا تنتطح ، وأن الحمائم لا تختصم ، إلا لما ساورها من القوة والفرح والنشوة ، وأحسوا فيض الربيع يدبق من الأعماق ، ويطغى على الآفاق ، ويجمع بين مظاهر الحياة وبواطنها جمع الصحاب والرفاق . ولولا ذلك لما كانت بهم حاجة إلى التغني بالنطاح والخصام ، وهما لا يطلبان فيما جرى عليه العرف الشعري من وصف هذا الأوان ، بل فيها غضاضة عند من يصفون ربيع « القوالب » المصبوبة، أو الربيع الصناعي الذي يرسمه الشاعر كما ترسمه المصورة الشمسية بلا اختلاف إلا كما اختلفت الآلات ، ولا تنويع إلا كما تنوعت المطبوعات .. »[٥] .

ومع حب العقاد للتراث بما يلابسه من جلال القدم وروعته فإنه كان متطلعاً دائماً إلى الجديد ، ولم يصرفه القديم لحظة عن التشوف إلى آفاق جديدة . ولعل موقفه من التجديد في الشعر العربي يوضح لنا استواء

(١) المصدر السابق ص ٧٩ – ١٨٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النظرتين عنده إلى القديم والجديد . فهو لا ينظر إلى الوراء مرة إلا ليخطو إلى الأمام مرات . وليس هنـــاك تناقض بين النظرتين ، ولا تعارض بين الموقفين .

ولقد اقتضت نظرة العقاد الجديدة للشعر أن يضع له أصولاً ومقاييس جديدة للنقد وللتذوق الأدبي على ضوء المدارس الأجنبية والاتجاهات الغربية . وعلى الرغم من أن العقاد اتهم بأنـه حمّل الشعر العربي والتـذوق الأدبي والنقد ما لم يحتمله ، وأدخل عليه من الآراء المجلوبة من الغرب مالا يتفق تمام الاتفاق مع الذوق العربي ، فإنه استطـاع باعتدال أن يطعم الأدب العربي الحديث بلقاح جديد . ولكنه لم يكن مسرفاً في هـذا التطعيم ، ولا منكراً لقيم التراث العربي الأصيل ، ولم يزل — على هدي الدراسات الأجنبية — يكتشف في التراث القديم قيماً لم يفطن إليها عميان البصائر . ولقد جاءت مدرسة « الديوان » نتيجة طبيعية حتمية لمدرسة البعث والإحياء في الشعر العربي التي قادها محمود سامي البارودي قيادة عظيمة . ولم يكن معقولاً أن تقف مدرسة البعث عندما وصلت إليه ، فإن الاتصال الفكري بالثقافات الأجنبية قد مهد الطريق لحركة الديوان التي قادها العقاد والمازني وعبد الرحمن شكري .

ونود أن نؤكد أنه لم يكن هناك تناقض بين الروح التراثية عند عباس محمود العقاد ، والروح المجددة عنده ... فلقد وقف العقاد على أروع وأبدع مافي التراث ليقيسه بمقاييس التقييم العالمية ومن هنا كان ابن الرومي عنده شاعراً معدوم النظير في الوصف الطبيعي حتى عند الغربيين .

ويصور لنا موقف العقاد من الشعر الحر موقفه من التراث الشعري عند العرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقد كان أخوف ما يُخاف من حركة التجديد عند العقاد وحملاته النقدية العنيفة على شوقي ومدرسته أنه ينقلب إلى قائد من قواد الشعر الحر ورائد من رواده ، للقرب الظاهر بين الاتجاهين .. ولكنه في الحق تقارب مكذوب . فقد كان العقاد مجدداً للشعر العربي ولكن في إطار الهيكل (التراثي) المألوف للشعر على مدى خمسة عشر قرناً أو تزيد . فقد أحس — رحمه الله — أن هيكل الشعر العربي قد يتعرض لصدع كبير أو لانهيار لا قيام له من بعده إذا مُسّ شكله أو قالبه التقليدي بما يعرضه للزلزلة . وتحمس العقاد لمناهضة الشعر الحر وعدّه شكلاً من أشكال النثر مهما كان في مضمونه من خيال أو وجدانيات . ويعد كتابه (أشتات مجتمعات في اللغة والأدب) دفاعاً عن اللغة وعن التراث العربي كله ، ودعماً لأوزان الشعر العربي الموروث بقافيته التي لم تكن سبباً لاختفاء المسرحية الشعرية من الأدب العربي القديم ، ولم تحُل في الزمن الحديث دون ترجمة الملاحم أو وضع الروايات المسرحية في شتى الموضوعات من حوادث الحاضر أو من وقائع التاريخ . ولعلنا ننصف العقاد حين نسوق كلامه في هذا المقام حيث يقول : (فإذا تجددت الدعوة إلى النظر في القوافي والأعاريض ، فالذين يطلبون إلغاءها يثبتون بذلك عجزهم عن مزاولة النظم الذي يستطيعه العامة والأميون. ولا خير للآداب العربية في عمل فني يتصدى له من لا يقدرون عليه ، ومن لم يخلقوا له ، ومن ليس عندهم فيه استعداد فطري يضارع استعداد شعراء الربابة وناظمي القصص الهلالية وما إليها . فإن لم يكن طالب القضاء على فن العروض العربي عاجزاً هذا العجز المعيب في مقاصده الفنية ، فهو طالب هدم صريح ، لغرض غير صريح ، ولكنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كذلك غير مجهول ؛ لأنه يلحق في هذا العصر بمن يهدمون كل تراث ، ويقتلعون كل أساس ، ولا يقنعون بشيء دون فوضى الآداب والعقائد والأخلاق) (١) .

ولعل القارىء الكريم يلاحظ هنا أن العقاد قد ألحق الذين يحاولون التخلص من العروض والقافية في الشعر العربي بالذين (يهدمون كل تراث)! وليس أبلغ من هذا في بيان حرص العقاد على التراث من صريح عبارته ، وواضح مقالته ..

ولم يكتف العقاد بكتابه « أشتات مجتمعات في اللغة والأدب » ليدافع عن القيم التراثية القديمة للغة العربية وأدبها وشعرها التقليدي ،ولكنه أصدر كتاباً آخر يتصل بالشعر عنوانه « اللغة الشاعرة » ، وهو كذلك دفاع عن الشعر العربي التراثي وأوزانه وموسيقاه ، ومقابلة بينه وبين العروض والوزن في اللغات الأوربية . والعقاد في هذا الكتاب يشيد كل الإشادة بأصالة الوزن في الشعر العربي ، ويؤكد على الحقيقة التي انتهى إليها ،وهي أنه من الخطأ الترخص في قواعده على نحو ما يهدف إليه أصحاب الشعر الحر بإلغائهم للقافية ، وإغفالهم لنظام البيت ، مع أن الذي ينبغي إلغاؤه القيود التي تعقل اللسان ، وتحبس الوجدان ، أما القواعد فلا ينبغي إلغاؤها لأنها قوام الوزن ، وبنية تركيبه .

وقد بلغ من تشبث العقاد بالتراث القديم والقيم الأصلية للأدب والشعر واللغة أنه أنكر في صلابة وثبات تلك الدعوات المستحدثة في العالم كله وخاصة في البلاد الغربية والتي تدعو في سهولة إلى التغيير والتبديل في

(١) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب . لعباس محمود العقاد ص ١١٠-١١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مذاهب الفن والفكر والعقيدة وسائر المذاهب المشتركة بين الجماعات البشرية. ولم يمنعه إنكاره لتلك الدعوات في جملتها أن يناصر الدعوات الصالحة التي تدعو إلى التأييد والتجديد ، ولا تدعو إلى الهدم والتقويض . وبالطبع قد جعل تلك الدعوات المستحدثة ضروباً مختلفة وأنماطاً متباينة في الغايات والطرق والنيات .. (فمنها الصالح المستحسن ومنها المتعجل المردود ،ولكنه يصدر عن نية حسنة فلا يستر وراءه باطناً غير الظاهر المتكشف للأبصار والأسماع ، ومنها ما هو من قبيل المكيدة المبيتة لترويج مذاهب الهدم ، وتقويض الدعائم التي تقوم عليها المجتمعات الانسانية)[1] .

ودافع العقاد في بحث له يتصل بالأدب العربي القديم عن اللغة العربية ، لأن الحملة على أية لغة أخرى غير العربية إنما هي حملة على اللسان والأدب وثمرات التفكير على أبعد الاحتمالات ، أما الحملة على لغتنا العربية فحمله على كل شيء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة (لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقيها بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية لايبقي للعربي أو المسلم قواماً يميزه من سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم ، فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان)[2].

ولم يسكت العقاد لحظة عن دفاعه عن اللغة العربية ، وهو دفاع لا يؤكد حبه لقومه وحسب ، ولكنه يؤكد حبه لتراث اللغة وخاصة تراثها الشعري الذي طالما أشاد به العقاد في أكثر من موضع ، وأكد

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٥ — ١٢٦

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن العربية لغة متطورة غير جامدة ولا واقفة وأن دلائل التطور العريق الذي تميزت به لغة الضاد هي من الحقائق العلمية التي قررها قوم ليسوا من العرب حتى يهتموا بالتحيز للغتهم ، وليس من المفاخر القومية التي يتيه بها أصحابها بغير دليل .

والعقاد منكر لقضية الانتحال في الشعر العربي القديم ، ومنكر لوجود طائفة من الرواة - كما يقول دعاة الانتحال — يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت إلينا وينالون في ذلك التلفيق نجاحاً لا تقبله العقول والأذواق (إذ معنى ذلك - أولاً — أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التي بلغها امرؤ القيس ، والنابغة ، وطرفة ، وعنترة ، وزهير وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية . ومعنى ذلك ثانياً — أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والأعمار والملكات الأدبية . فينظمون بمزاج الشاب طرفة ، ومزاج الشيخ زهير ، ومزاج العريد الغزل امرىء القيس ، ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرّون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ، ويجمعون له القصائد على نمط واحد في الديوان الذي ينسب إليه . ومعنى ذلك - ثالثاً — أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ، ثم يفرط الرواة في سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل . وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان ، فضلاً عن إساغته بغير برهان ولغير سبب ، إلا أن يقوم ويعزز التوهم بالتخمين ؛ وإن تصديق النقائض الجاهلية جميعاً لأهون من تصديق هذه النقيضة التي يضيق بها الحس ، ويضيق بها الخيال .

وشتان — مع هذا — النقائض التي يستدعيها العقل ويبحث عنها إذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تفقدها فلم يجدها ، والنقائض التي يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم) (١) .

ولم يحتج العقاد في إبطال حجج القائلين بانتحال الشعر الجاهلي وتلفيق الرواة له إلى حجج العقل والمنطق وحدهما ، ولكنه رجع إلى الشعر المنحول نفسه من ذلك التراث الجاهلي ليقف وقفة على مدى ما يصنعه التلفيق ، وليعقد مقارنة بين مختلف الروايات المنحولة ليستند من القرائن الأدبية إلى ما لم يستطع المستشرقون القائلون بالانتحال أن يتفطنوا إليه، لأنهم ينظرون — بحكم عجمتهم وبعدهم عن الروح العربية — في النصوص والإسناد ، ولا ينظرون في الأدب ولا في روح الكلام ومضامين التعبير . ومن هؤلاء المستشرقين من لا يعرف أدب بلاده هو ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التي رضعها مع لبان أمه ، وتلقفها في حجرها . فليست معرفة هؤلاء الأجانب باللغة العربية كافلة لهم أن يحكموا على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق .

وهنا لم يفت العقاد أن يشير إلى أوهام المستشرقين وسخافاتهم وتفاهاتهم في فهم العربية ، وتناول النصوص ، لبعدهم عن روح اللغة بعداً يباعد بينهم وبين الفهم الصحيح الدقيق لقيمها ومعانيها .. فمنهم من كتب في مادة « أخذ » أنها تأتي بمعنى : نام ، لقوله تعالى : (لا تأخذه سنة ولا نوم). ومنهم من يترجم أبا بكر الصديق رضي الله عنه بأبي العذراء ، خالطاً بين البكر — بفتح الباء — والبكر — بكسرها — ومتوهماً أن الصديق هو والد الزوجة عائشة التي بنى بها النبي عليه السلام وهي عذراء ...!

(١) مطلع النور ، أو طوالع البعثة المحمدية لعباس محمود العقاد ص ٧٤ - ٧٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنهم من يترجم « الصعيد » فيجعله : مصر الميمونة ، أو مصر السعيدة ، قياساً على اليمن التي تسمّى بالعربية السعيدة ، وخلطاً منه بين الصعيد بمعنى أعلى الأرض ، والسعيد من السعادة (١) .

ولقد كان العقاد كثير الاستشهاد بالشعر العربي القديم - أي شعر التراث - حين تدعو مناسبة إلى الاستشهاد والتمثيل . وهذا يدلنا على حب العقاد لشعر التراث وتقديره له وعلمه بقيمته في مواطن الاستشهاد .

ولو كان الشعر التراثي غير جيد ولا عال في طبقته لما أبه العقاد به ، ولا عني نفسه بالاستشهاد به . ولو أخذنا نستخلص الشعر والأبيات التي ساقها العقاد مساق التدليل والعرض لخرج بنا المجال هنا عن القصد ، ولكن أدنى نظرة إلى كتب العقاد الكثيرة - التي تزيد على التسعين - وإلى مقالاته وبحوثه وإذاعاته وأحاديثه تؤكد لنا هذا القول .

وطالما وقف العقاد مدافعاً عن شعر التراث الجاهلي وما بعده من التهمة التي ألصقها به بعض المتجنين عليه من أنه كان شعراً قاصراً دون تصوير المجتمع العربي . ولا بأس أن نسوق كلام العقاد هنا بنصه نقلاً عن مقال له في كتابه : (الفصول) بعنوان : الأدب المصري . يقول العقاد : (وربما سمعت اليوم بعض المتأدبين يقسمون الشعر إلى اجتماعي وغير اجتماعي ، ويعنون بالشعر الاجتماعي شعر الحوادث العامة ، وبغير الاجتماعي ما يعني قائليه وحدهم . هؤلاء يزعمون أن الشعر زاد عليه في عصرنا باب مبتكر واتسعت مفادحه بالنظم فيما يهم الأمة . فلم يعد مقصوراً على الأبواب الخمسة المألوفة في الدواوين القديمة ، وهي على الجملة : المدح والفخر والهجاء والوصف والرثاء . وهذا جهل وخلط بين أغراض الشعر

(١) المصدر السابق ص ٧٧ - ٧٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحقيقية التي تفهم من معناه ، وبين عناوين أبوابه في الكتب . وإلا فأي شعر أقدم من الشعر الاجتماعي عند العرب ؟.

فهذه دواوين شعرائهم الأقدمين والمحدثين هل خلا أحدهـا من عدة قصائد في كل واقعـة من الوقائـع التي كانت تهمهم يومئذ ؟ وهل مجرد حدوث الوقائع في القرن العشرين ، لا في القرن العاشر أو الخامس ، جاعل للشعر المنظوم فيها روحاً جديداً ، أو نمطاً مبتكراً ؟.

ثم إننا لا نعرف شعراً يرويه الناس ويقال إنه يعني قائله وحده . لأن شعر النفس يعني كل نفس . والشعر الذي لا يعني قراءه لا يستحق أن ينظم . وما من شعر نظم إلا وهو بهذا المعنى شعر اجتماعي ، لأنه يبين عن حالة المجتمع ويؤثر فيها . وإن لم يكن اجتماعياً بمعنى أنه يخاطب الأمة أو يدون حادثاً قومياً ، أو عملاً من أعمال الجماعات . وربما خدعك الشعر الاجتماعي عن حالة الأمة لخطأ في رأي صاحبه ، وانحراف في نظره إلى الحوادث وتقديره لها ، ولم يخدعك شعر الغزل مثلاً ، وهو أخص القول بقائليه ، لأن الغزل في آن واحد مسبار نفس الرجل ومعيـــار قيمة المرأة ...)[1] .

ولعل باحثاً لم ينصف الشعر العربي القديم من حيث تناوله للمجتمع العربي كما أنصفه العقاد . فليس من الضروري أن يوضع على عنوان قصيدة جاهلية أنها شعر اجتماعي لنثبت بذلك مشاركة شعر التراث لوصف الحياة الاجتماعية ، والحق أن في شعر التراث كله — جاهليه وإسلامه — أوصافاً للمجتمعات العربية والاسلامية لا ينكرها إلا متعنت أو غافل .

---

(١) الفصول ـ لعباس محمود العقاد ص ١١٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد سبقت منا إشارة إلى أن تفضيل العقاد للشعر التراثي القديم لم يأت من حيث كونه قديماً وللقديم روعة وانبهار ، ولكن الأفضلية تأتي من حيث قيمة الشعر في ذاته ، بغض النظر عن كونه من شعر التراث القديم أم من شعر الشعراء المحدثين والمعاصرين . ويسوقنا هذا الموقف إلى توضيح رأي العقاد في هذه القضية التي عبر عنها غير مرة بوضوح لم يكتنفه غموض ، وظل طول حياته يلح عليها بالشرح والتوضيح . ففي سنة ١٩٢٤ دارت مناقشة بين مصطفى صادق الرافعي وسلامه موسى، كان مدارها حول القديم والجديد . ودخل ميدان المناقشة – من باب الاستفتاء والاستفهام أديب من سوق الصدرية ببغداد اسمه محمد رؤوف الكواز يطلب من العقاد أن يبدي رأيه في الموضوع الذي طال النقاش فيه بين الرافعي وسلامة موسى ، فدخل العقاد الميدان بمقال نشر في عدد ٥ أبريل سنة ١٩٢٤ من جريدة البلاغ عنوانه : « القديم والجديد » بسط فيه رأيه قائلًا إننا نعلم أنه ما من أحد من الغلاة في التشيع للقديم يقول بأن كل قديم – على علاته – مفضل على كل جديد ولو كملت له محاسن القدم ، وأربى عليها بفضل من محاسن الجدة . كذلك نعلم أن المتشيعين للجديد لا يقولون إن ما يكتب اليوم أجمل وأبلغ مما كتب في العهد الذي نسميه قديماً ، ولو كان هذا لشيخ من شيوخ الكتابة المعدودين ، وكان ذلك لنا شيء من الشداة المترسمين .

فالرأي متفق بين الفريقين على أن ليس الفضل بين الكتاب بالسبق في الزمان أو بتأخره ، وإنما الفضل الذي يوازن به بين أديب وأديب ، في شيء آخر غير تاريخ الولادة وعصر الكتابة . فما هو ذلك الشيء ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما هي هذه المزية التي إذا تمت لأديب متقدم أو متأخر سجل بها في عداد الأدباء ، وفضل بها على من لم تتم له ولو كان هذا من أعرق الناس زمناً أو من آخرهم في سجل المولودين اسماً ؟ هذا ما لم يتفق عليه أنصار القديم وأنصار الحديث . غير أني أعرّف المزية المطلوبة في الأديب تعريفاً لا أظنه يحتمل الخلاف من أحد الفريقين . فأقول إن شرط الأديب عندي أن يكون مطبوعاً على القول ، أي غير مقلد في معناه ولفظه ، وأن يكون صاحب هبة في نفسه وعقله ، لا في لسانه فحسب . أي يجب أن تسأل نفسك بعد قراءته : ماذا قال ؟ لا أن يكون سؤالك كله ، كيف قال ؟ فهو مطالب بشيء جديد من عنده ينسب إليه ، وتتعلق به سمته ، ويخرجه عن أن يكون نسخة مكررة لمن تقدمه ..) (٢) .

فالعقاد لم يعجب بالقديم لأنه قديم ، بل أعجب بما في القديم من مزايا جعلت له الفضل والتميز . فالجاحظ في نظر العقاد ليس محموداً في جملته ، وإلا فإن تكراره معيب في بعض المواضع ، مهما تغنى محبوه بمحامد التكرار فيه . والجرجاني في رأي العقاد معقد متقبض في كثير مما كتب على الرغم من إعجاب أنصاره ومحبيه ببلاغته . وأوجز العقاد رأيه في هذه القضية بقوله في ختام بحثه : (إنني لا أستهجن من الأديب إلا أن يكون جاهلاً بلغته ، أو رصافاً مقلداً ، أو مكتفياً باللفظ يذهب كل ما فيه من حسن وزينة إذا ترجم إلى لغة غير العربية . أما اختلاف الزمن فلا شأن له عندي في التفضيل بين زمان وزمان .. فابن المقفع مثلاً أفضل من كثير في كتابنا ، ولكن زماننا أفضل من زمانه ، فهل نلومه على تقدم عصره

(١) مطالعات في الكتب والحياة ـ لعباس محمود العقاد . ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونغض من قدره بما وصلت إليه الدنيا بعد زمنه ؟ لا وإنما نفعل ذلك عند الموازنة بين فضائل العصور لا عند الموازنة بين أقدار الأدباء ..) (١) .

وهذا التقدير السليم للتراث الشعري عند العقاد هو الميزان الصحيح الذي يزن به الشعر دائماً في جملته وعلى اختلاف عصوره ، وكما رأينا عنده أن الشعر الجيد جيد بقيمته في ذاته لا بمرتبته في القدم والحداثة ، فكذلك الشعر لا يعتز بانتماء إلى قبيل دون قبيل ، وإنما يعتز بما فيه هو من قيم تجعله في مرتبة التقدم والاستعلاء . وفي التراث شعر للرجال والنساء ، فهل يسوي النوعان لأنهما تلفهما رابطة القدم والتراث في إزار واحد ؟ وهل شعر المرأة في الجاهلية جيد لأنه ملفوف بإزار التراث ، أو معفر بغبار الزمان ؟

لقد وقف العقاد وقفات مستأنية عند شعر جليلة بنت مُرّة ترثي أخاها وزوجها ، ووقف عند شعر « دَخْتَنوس » بنت لقيط بن زرارة ترثيه ، ووقف عند شعر « السلكة » ترثي ابنها سليكا السعدي ، ووقف عند شعر « الخرنق » ترثي عشيرتها ، ووقف عند شعر « ليلى الأخيلية » ترثي زوجها توبة الحميري ، ووقف عند شعر « ليلى بنت طريف الشيبانية » ترثي أخاها ، ووقف عند شعر « الخنساء » — وهي نهاية المطاف في شواعر العرب القدامى — ترثي أخاها صخراً ، فلم يجد في تلك النماذج الرثائية إلا شيئاً متشابهاً مكروراً عند الشواعر ، لا يخرج عن هذا المعنى المألوف بين جميع الراثيات والباكيات ، وقوامه النواح على الميت وتعداد المناقب المأثورة عن الرجال عامة ، وتكرار التفجع بصيغة واحدة يتغير فيها بعض

(١) مطالعات في الكتب والحياة ص ٢٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكلمات ولا يتغير فحوى الكلام . ومثل هذا الرثاء يسمع اليوم في المناحات والمآتم من نساء المدن والقرى بمصر وغير مصر دون اختلاف (١) .

وهكذا نرى العقاد لا يثبت لشعر التراث النسائي الرثائي مزية من فضل يزكيه بها القدم والتراثية ، ولكنه ـ على الضد من ذلك ـ يقرر أنه شعر عادي مألوف يقوم على الندب والنواح أكثر مما يقوم على المعاني والأفكار التي تجعل للشعر قيمة وقوة ، وفضلاً ومزية .

ومن هنا نستطيع أن نحكم في اطمئنان أن إعزاز العقاد للتراث هو إعزاز الواعي البصير ، المدرك لقيم الجمال ، المتفطن لمعاني التبريز ، لا إعزاز المتشبث بالتراث لمجرد أنه تراث ...

وقد أحب عباس محمود العقاد التراث العربي بكل فنونه وألوانه ... أحب شعره ونثره ، وأحب ترسله وسجعه ، وأحب حقائقه وخيالاته ، وأحب خطبه ووصاياه ، وإن كان في الحق يكنّ للشعر كثيراً من الحب والتقدير . وقد يكون حب العقاد للشعر التراثي لأنه لم يكن هناك وقتئذ من الفنون ما يزحمه مكانة ، وينافسه قدراً ، فهو حب لم يكن منه بد لأنه لم يكن في سوق بضاعة الأدب يومها ظاهراً غير الشعر ، ولم يكن في الميدان مبرزاً غير الشعراء لأن القبيلة كانت تهنأ إذا نبغ فيها شاعر ... أما في العصر الحديث ـ حيث ظهرت فنون أدبية كثيرة منها القصة المغرية المشوقة ـ فإن حب العقاد كان دائماً للشعر ... ولعله هنا ينحاز في الحكم بحكم ما أوتيه من موهبة الشاعرية التي غلبت عليه وسبقت في الظهور عنده على الفن القصصي ... وقد بلغ من حبه للشعر أنه جعل بيتاً واحداً

(١) بين الكتب والناس ـ لعباس محمود العقاد . ص ٨٢ ـ ٨٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جيداً يعدل خمسين صفحة من القصة ... ونسجل هنا رأيه في هذه القضية ، وقد أفضى به في كتاب « أنا » الذي قدمه صديقنا العزيز الراحل طاهر الطناحي طيب الله ثراه ، حيث يقول :

(قال : كيف ؟ أليس في الرواة والقصاصين عبقريون نابهون كالعبقريين النابهين في الشعر وسائر فنون الآداب ؟ قلت : بلى ! ولكن الثمار العبقرية طبقات على كل حال . وقد يكون الراوية أخصب قريحة ، وأنفذ بديهة من الشاعر أو الناثر البليغ ؛ ولكن الرواية تظل بعد هذا في مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور ... والمثل هنا أقرب إلى الإيضاح من سوق القضية بغير تمثيل : إن الحديقة التي تنبت التفاح لا يلزم أن تكون في خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التي تنبت الجميز أو الكراث . ولكن الجميز والكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا في أرض أخصب من الأرض التي تنبته وتزكيه .

ونحن نقرأ القصص التي تجود بها قرائح العباقرة من أمثال ديكنز ، وتولستوي ، ودستويفسكي ، ويورجيه ، وبروست ، وبيراندلو ، فنؤمن بتلك العبقريات التي لاتجارى في هذا المضمار ، ولكن إيماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة في الذروة العليا من أبواب الآداب ، ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها في التقدير والتمييز ...

قال : وما المقياس الذي ترتب به هذه الرتب يا ترى ؟

قلت : لعله مقاييس شتى لا مقياس واحد . ولعل الناس يختلفون فيها كاختلافهم في كل شيء يرجع إلى المشرب والتعبير . غير أنني أعتمد في ترتيب الآداب على مقياسين يغنياني عن مقاييس أخرى ، وهما : الأداة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالقياس إلى المحصول ، ثم الطبقة التي يشيع بينها كل فن من الفنون . فكلما قلّت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب . وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال إلى النزول والإسفاف . وما أكثر الأداة وأقل المحصول في القصص والروايات . إن خمسين صفحة من القصة لاتعطيك المحصول الذي يعطيكه بيت كهذا البيت :

وتلفتت عيني ، فمذ بعدت عني الطلول تلفت القلب

أو هذا البيت :

كأن فؤادي في مخالب طائر إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

أو هذا البيت :

ليس يدري أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لأنس ؟

أو هذا البيت :

وقد تعوضت عن كل بمشبهه فما وجدت لأيام الصبا عوضا

لأن الأداة هنا موجزة سريعة ، والمحصول مسهب باق . ولكنك لا تصل في القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة في التمهيد والتشعيب . وكأنها الخرنوب الذي قال التركي عنه – فيما زعم الرواة – إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة ! أما مقياس الطبقة التي يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا المقياس إلى أحكام الترتيب والتمييز . ولا خلاف في منزلة الطبقة التي تروج بينها القصة دون غيرها من فنون الأدب ، سواء نظرنا إلى منزلة الفكر أو منزلة الذوق أو منزلة السن ، أو منزلة الأخلاق ، فليس أشيع من ذوق القصة ، ولا أندر من ذوق الشعر والطرائف البليغة ، وليس أسهل من تحصيل ذوق القصة ولا أصعب من تحصيل الذوق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعري الرفيع حتى بين النخبة من المثقفين ..) (١) .

وإذا كان العقاد عالي التقدير للتراث الشعري عند العرب ، فإنه يعتقد أن روح الشعر القديم هي التي غذت الشعر المصري في القرن الماضي بالسلامة ، وأمدته بالفحولة . ويقصد من ذلك حركة البعث والإحياء التي قادها محمود سامي البارودي فنزع عن الشعر أثواب التفاهة والابتذال في العصور العثمانية المتأخرة ليرده إلى روعة القديم وجلاله . وندعه يقرر هذه الحقيقة بنص عبارته حيث يقول في مستهل بحث جيد كتبه عن الشاعر البدوي أستاذنا الشيخ محمد عبد المطلب رحمه الله : (سلم الشعر العربي في مصر من سخافة التلفيقات اللفظية وركاكة الابتذال ، ثم اتجه إلى الفحولة والجزالة منذ نيف وستين (٢) سنة ، على مقربة من العصر الذي جاشت فيه الحركة القومية ونشبت الثورة العرابية ، وبدأت فيه العقول والطبائع تعرف ظواهر الجمود والإسفاف ، وإن لم تنته إلى العرفان بحقائق النهضة وبواعث اليقظة الكاملة .

وكان فضل هذه السلامة يرجع إلى أمرين : أحدهما أدبي قريب من الشعر والشعراء ، وهو سريان الشعر القديم — شعر الفحول المطبوعين المشهود لهم بالسبق في البلاغة والأستاذية — بين أيدي المتأدبين والقراء ، على أثر ظهور الطباعة وانتشار آثارها في البلاد الشرقية . ويتصل بهذه اليقظة الأدبية من بعض أطرافها يقظة القراء المطلعين على الكتب الأوربية والأنماط الحديثة في شعر اللغات الحية التي كانت معروفة يومئذ بين خاصة

(١) أنا : بقلم عباس محمود العقاد ص ٢٨٧ — ٢٨٨

(٢) كتب هذا الفصل سنة ١٩٣٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المصريين . فإن الشعر العربي « القديم » والشعر الأوربي الحديث كليهما خليقان أن يصرفا الأذواق عن تلفيقات اللفظ ، وزخارف التمويه المبذول . ويعينهما على ذلك نفحات الصحة والفتوة التي أخذت تشيع في النفوس بعد عصر الخمول والتلكؤ والمهـــانة . وليس بكثير على هذه العوامل المجتمعة — ولو كانت في بدايتها — أن تكشف للناس عن زيف الصناعة المبهرجة ، والتزويقات الهازلة ، وترتفع بهم عن هذه الطبقة الوضيعة إلى طبقة القدوة بذوي الأصالة ، وأعلام الفحولة والجزالة .

أما الأمر الآخر الذي أعان على تجديد الفحولة في الشعر العربي بمصر فهو ديني ، يتصل بالأدب والشعر من طريق دائر ، ولكنه طريق ظاهر ...)[1] .

وليس بعد هذا التقدير للشعر التراثي القديم تقدير في نظر الباحث المنصف ، فإن فضل التراث على النهضة وحركة البعث والإحياء في الشعر المصري المعاصر فضل ظاهر لا ينكر ، وقد زاد العقـــاد من توكيده والإلحاح عليه ، وفاءً منه لهذا التراث العظيم ، وحضاً للأبناء على أن يهتدوا دائماً بهدي الآباء والأجداد في طريق الوصول إلى حاضر مجيد ، ومستقبل سعيد .

محمد عبد الغني حسن

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي — لعباس محمود العقاد ، ص ٤٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net